المؤامرة والخرافة: العقل المصرى فى خطر

يحدث الصراع حين يوجد تناقض. فالصراعات بمختلف أنواعها هى تعبير بأشكال مختلفة عن تناقضات متنوعة ومتفاوتة. وقد يكون التناقض فى المصالح السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية- الطبقية أو العسكرية. وقد يكون فى الأفكار بمعناها الواسع من أيديولوجيات وأديان ومذاهب وقيم ترتبط بانتماء إلى هذه الفئة أو تلك فى المجتمع.

وكلما ازدادت معرفة البشر بطبيعة تناقضاتهم، سهل عليهم تفسير الصراعات التى تحدث بينهم وإدراك أبعادها بشكل صحيح وبمنأى عن الأساطير والخرافات التى يلجأون إليها حين يستعصى عليهم فهم كيف يندلع الصراع ولماذا يتخذ هذا الطرف أو ذاك موقفاً معيناً أو آخر.

وكانت المؤامرة هى أكثر الخرافات التى لجأ إليها البشر، ومازالوا، لتفسير ما يستعصى عليهم من صراعات، سواء كانوا أطرافاً فيها أو لم يكونوا. ولا يعنى ذلك أنه لا توجد مؤامرات. ولكنه يعنى أنها استثناء وليست قاعدة فى تاريخ الصراعات. فالتاريخ ليس مؤامرة، ولكنه لم يخل من مؤامرات على هامش أحداثه. كما أن الصراع فى حد ذاته لا يمكن أن يكون مؤامرة إلا فيما ندر، ولكنه قد يُدار فى بعض الحالات بوسائل تآمرية وإذا عدنا إلى التاريخ، نجد أن لجوء البشر إلى التفسير التآمرى للصراعات تناقص تدريجياً مع ازدياد قدرتهم على فهم طبيعة هذه الصراعات.فلم يكن التفسير التآمرى للصراعات فى الأغلب الأعم إلا نتيجة عجز الإنسان عن إدراك ما يحدث له. فقد أنتج هذا العجز لجوءاً إلى الخرافة لتفسير ظواهر لا يستطيع الإنسان الإلمام بأبعادها.

وظل هذا هو حال البشر حتى العصر الحديث الذى تفاوت الالتحاق به من منطقة إلى أخرى فى العالم. ولأن أوروبا سبقتنا فى مصر إلى هذا العصر، اعتصم كثير من المصريين بالخرافة حين حدث أول احتكاك مباشر وعنيف مع الأوروبيين إبان الحملة الفرنسية فى نهاية القرن الثامن عشر.

ويروى الجبرتى كيف كان المصريون يرددون (يا خفى الألطاف نجنا مما نخاف) حين رأوا للمرة الأولى ما جاء به الفرنسيون من أسلحة وأدوات أخرى متقدمة.

غير أنه لم تمض سنوات عقب الشروع فى بناء دولة وطنية شبه حديثة حتى بدأت المعرفة تطرد الخرافة من عقول المصريين تدريجيا بمقدار توسع معارفهم.

غير أن هذا التطور لم يكتمل، مثله مثل كل جوانب الانتقال من العصور الوسطى إلى العصر الحديث. ولذلك كان سهلاً الارتداد إلى التفسيرات التآمرية كلما احتدمت الأزمات، ووجدت الحكومات أن مصلحتها تتطلب اللجوء إلى هذه التفسيرات للتنصل من مسؤوليتها عن تلك الأزمات وما يترتب عليها من نتائج.

كما قامت الجماعات والحركات التى حاولت احتكار الدين وتاجرت به بدور معتبر فى تدعيم التفسيرات التآمرية فى إطار الخرافات التى تعتبر جزءاً لا يتجزأ من عقليتها وبنيتها «الفكرية». غير أنه ما كان ممكناً أن تنجح هذه الجماعات- مثلاً- فى نشر خرافة أن السلطة الأمريكية هى التى دبرت هجوم 11 سبتمبر على برج التجارة العالمى ونفذته وليس تنظيم «القاعدة»، إلا لوجود استعداد لقبول التفسيرات التآمرية والخرافية. ولم تبذل هذه الجماعات جهداً كبيراً لنشر مثل هذه الخرافة، مثلما لم تجد أجهزة الأمن صعوبة فى إشاعة خرافة من نوع ارتباط الماركسية

بالصهيونية فى مرحلة سابقة، ثم ارتباط الليبرالية حقوق الإنسان بمصالح غربية فى مرحلة لاحقة!

ولذلك فليس غريباً أن يظل قطاع واسع فى مجتمعنا مستعداً للاقتناع بالتفسيرات التآمرية الشائعة الآن على صعيد علاقاتنا الدولية، لأن العقل المصرى ظل أسير خطاب عدائى ضد الخارج رغم اختلاف خلفيات هذا الخطاب وأهدافه من مرحلة إلى أخرى. فلا مفاجأة فى هذه الحالة إلا على صعيد حجمها الذى كان مفترضاً أن يتناقص مع الوقت، فإذ به يزداد ويبلغ مستوى يتجاوز العقل ويهدده بخطر شديد.

فإذا ازداد الميل إلى التفسيرات التآمرية فى وقت كان ينبغى أن يقل فيه، وإذا انتقلت هذه التفسيرات إلى قلب المجتمع حين كان يُفترض أن تصبح على هوامشه، يصبح هذا المجتمع فى خطر ينبغى الانتباه إليه والتنبيه إلى ما يحدث من تواطؤ عليه.

فما أتعسها المجتمعات التى تعود إلى الوراء فى هذا الزمن، وما أشقاها الدول التى يسودها العقل الخرافى فى عصر ثورة المعرفة والمعلومات والاتصالات، وما أسوأ حظها الشعوب التى يُفرض عليها أن تبحث عن مؤامرة وراء كل مشكلة وتستسهل الركون إلى التفكير الخرافى الذى كان لصيقاً ببدائية الإنسان فى فجر الحياة البشرية.